التراث والتجديد: مشروع فكري في الخطاب العربي المعاصر

مقدمات، تساؤلات، استنتاجات

د. نابي بوعلي (*)

إن الكتابة عن فكر الأستاذ حسن حنفي ليست بالأمر السهل أو اليسير، كما قد يتصور البعض، فالرجل صقلته أحداث متنوعة، ومعقدة ومتداخلة أثرت بشكل كبير على مساره الفكري ومسيرته التاريخية، وانعكست بالتالي في إنتاجه الفكري الغزير(لا نريد هنا أن نقدم الأستاذ حسن حنفي، فلقد قدمه التاريخ للأجيال الحالية وسيقدمه للأجيال القادمة) فقد استوعب حسن حنفي التراث الإسلامي في مختلف أبعاده وأطيافه، كما تشرب من واقع الظروف التي مرّ بها ولا يزال يمرّ بها الوطن العربي، من مجد الحضارة الإسلامية الشامخة التي امتدت إلى مختلف بقاع الدنيا وأشرقت أنوارها الساطعة على الكثير من الأمم والشعوب الضالة، إلى مرحلة تراجع وتقهقر هذه الحضارة في عصور التخلف والانحطاط، إلى موجة الاستعمار الغربي و الزحف على الوطن العربي والاعتداء عليه واحتلاله، إلى النظام العولمي الجديد وحداثته الملغمة، والذي يجرف معه الشعوب دون رحمة،مع ما يمثله من خطر وعدوان على الهوية الوطنية.كما شكلت دراسة الفكر الأوروبي محطة مركزية من محطات فكر حسن حنفي وأثرت عليه بالمقابل، سواء أثناء إقامته في فرنسا أيام الدراسة أو بعد ذلك(١).

(*) قسم الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر.

(١) عبد الجبار الرفاعي، الفكر الإسلامي المعاصر، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، ط١، تموز٢٠٠٠، ص٢١٦.

انطلاقا من الوعي العميق بضرورة التنظير لمشروع شمولي للمجتمع الإسلامي بشكل علمي ومدروس يجدد لهذه الأمة حضورها ووجودها في حلبة التاريخ من جديد، وانطلاقا من كون المثقف هو صاحب مسؤولية ورسالة في الحياة. حيث يؤكد ذلك الأستاذ حسن حنفي قائلا:"المفكر والمثقف والفقيه والعالم والقاضي والإمام كلهم لهم رسالة واحدة في الإبقاء على الحق والتذكير به"(١).

وانطلاقا كذلك من هذا الإحساس العميق، والشعور بثقل المسؤولية العلمية، وعبئ وخطر المسؤولية التاريخية يندرج مشروع حسن حنفي "التراث والتجديد"،بجبهاته الثلاث(التراث التجديد الواقع) ،على اعتبار أن هذا المشروع ليس مشروعا ذاتيا، بل هو مشروع ثقافي وحضاري ذو أبعاد وامتدادات واسعة، تتوزع عبر حقول معرفية وتاريخية وعلمية، والتواءات فكرية كثيرة ذات طابع شمولي وهو ما يجعل هذا المشروع يحتل مكانة متفردة في الفكر العربي المعاصر، ولذلك فإننا نختلف مع وجهة النظر التي ترى أن الاتفاق على مشروع واحد بين المفكرين المسلمين لم يتحدد بعد في رؤية واضحة المعالم والأبعاد، كما يقول الأستاذ محمد عبد اللاوي:" إن التحولات التي يشاهدها العالم الإسلامي منذ عصر الإصلاح (السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني) وما تلاه من استعمار وتحرر من الاستعمار ومحاولات للخروج من التخلف. كل هذه العوامل حتمت اللجوء إلى التاريخ من طرف المفكرين في العالم الإسلامي بكل اتجاهاتهم (الاتجاه الإسلامي والاتجاه المحدث).وقد كان هذا اللجوء إلى التاريخ، وما يزال إما لتبرير مواقف مسبقة من تاريخ الأمة الإسلامية أو لتأسيس الرؤية السياسية والحضارية على أسس متينة. أي على خلفية تعتمد على رؤية فلسفية و علمية إلى التاريخ.

وعلى العموم، فالفكر الإسلامي المعاصر لم يستطع إلى حد الآن صياغة منظومة فكرية تصل إلى مستوى النظرية أو المذاهب. في المجال الاجتماعي على العموم وفي

---

(١) الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق، ص٢٤٦.

مجال فلسفة التاريخ على وجه الخصوص. فأكثر المساهمات تتصف بالاندفاع والمواقف العاطفية التي تعبر عن عجز الفكر الإسلامي المعاصر للوصول إلى صياغة جهاز مفاهيمي. وتعتبر كتابات السيد محمد باقر الصدر مواقع فكرية جد متقدمة في مجال التنظير والنظرة المستقبلية" (١).

يعتبر الأستاذ حسن حنفي واحدا من الفلاسفة و المفكرين القلائل الذين يتحركون على مستوى العالم العربي ليجددوا لهذه الأمة تاريخها، فهو صاحب مشروع رائد في قراءة التراث وإعادة بنائه طبقا لظروف العصر، حيث يستقي من روافد التراث وأعماقه من الكنوز التي لا تزال حية، ويباشر كذلك الواقع المعيش كما هو ليمزج بينهما في فضاء واحد يجعله يدرك أهمية الماضي الذي لا يزال متغلغلا في النفوس ويزن بكل ثقله على واقع الأمة مما يحتم عليها دائما الرجوع إليه. والذي لاينسيها في الوقت نفسه الواقع المباشر الذي تحياه وتتفاعل معه سواء بطريقة سلبية أو بطريقة ايجابية.

وللتعريف بهذا المشروع يقول الأستاذ حسن حنفي:" وعيت نفسي مبكرا على الحرب العالمية الثانية(١٩٤٠-١٩٤٥)، و الطائرات ألمانية فوق سماء القاهرة. و كنا متعاطفين مع دول المحور، لأنها ضد بريطانيا التي احتلت مصر. و صدمنا بهزيمتها أمام الحلفاء و فرحنا بوطنية عزيز المصري.

ثم وعيت مأساة فلسطين، وذهبت للتطوع عام(١٩٤٨)وأنا في سن الثالثة عشرة.ورفضت جهات استقبال المتطوعين، لأنني لابد أن انتمي إلى حزب أولا، الإخوان أو الشباب المسلمين أو مصر الفتاة، و أنا لا حزب لي إلا فلسطين، فكرهت الأحزاب و التفرق في القضايا الوطنية. وكانت مأساة ضياع فلسطين في عام(١٩٤٨)، وفي نفس الوقت فرحنا بنضال الشهداء. وفي(١٩٥١)أثناء المقاومة ضد الاحتلال البريطاني في

---

(١) د. محمد عبد اللاوي، فلسفة التاريخ من خلال كتابات الإمام الصدر ونقد نهاية التاريخ، مؤسسة دار الإسلام جمادى الثانية ١٤٢٠ هـ أيلول ١٩٩٩ م ص٨٥.

قناة السويس تطوعت مع الإخوان، و تدربنا في كلية الهندسة بالعباسية، وسرنا كجنود في جنازات الشهداء.

وفي نفس الصيف الذي قامت فيه الثورة المصرية في(١٩٥٢) دخلت جماعة الإخوان المسلمين التي كانت تجمع بين الإسلام و الوطن، إذ كان الوفد وطنيا، وكان الشيوعيون أصحاب فكر غربي، و مصر الفتاة كانت تمارس العنف، فكان الإخوان هم الذين يجمعون بين الإسلام و الثورة، وقد كان ثلث أعضاء قيادة الثورة منهم.

وعرفت السيد قطب في المركز العام، و تأثرت بكتاباته الأولى" العدالة الاجتماعية في الإسلام"، " معركة الإسلام و الرأسمالية"، "السلام العالمي و الإسلام"، قبل أن يتحول إلى غاضب تحت تأثير تعذيب السجون في " معالم في الطريق".

و في الجامعة حدثت أكبر أزمة في شبابي و هي الصراع بين الإخوان والثورة في (١٩٥٤) و حل الإخوان و دخلوا السجن، و استشهد عبد القادر عودة و رفاقه. ورأيت نواب صفوي في الجامعة زعيم حركة فدائيات إسلام بعد أن حمله الإخوان على الأعناق.

و لم تتم المصالحة في نفسي بين الإخوان و الثورة إلا بعد تأميم قناة السويس في (١٩٥٦) و تحول عبد الناصر إلى بطل قومي. و كنت قد اختلفت مع الإخوان عندما عارض الإخوان تأميم مصدق للنفط في إيران في (١٩٥٤) و هروب الشاه. و أنا كنت مع تأميم النفط و الحركة الوطنية التي قادها مصدق.

غادرت إلى فرنسا عام (١٩٥٦) عام التأميم لقناة السويس لإعداد الدكتوراه في الفلسفة، و قضيت عشر سنوات عرفت فيها علي شريعتي و حسن الترابي و عملت مع جبهة التحرير الوطنية في الجزائر من خلال المنظمات الطلابية العربية و الاسلامية. و عدت في (١٩٦٦) بعام قبل هزيمة(١٩٦٧).

ووعيت في باريس علم أصول الفقه و أهميته كمنهج فكري عملي للمسلمين،وكتبت فيه الرسالة الأولى" مناهج التأويل في علم أصول الفقه".كما وعيت الفكر الأوروبي و كتبت فيه الرسالة الثانية من جزأين"تفسير الظاهريات"و"ظاهريات التفسير".وعيت التقابل بين ألانا و الآخر و جدلهما في العصر، وهو مشروع التراث و التجديد بجبهاته الثلاث، ألانا و الآخر و الواقع، الموقف من التراث القديم، و الموقف من التراث الغربي، و الموقف من الواقع أو نظرية التفسير.

وعدت أستاذا بالجامعة منذ(١٩٦٧)أبعث الطلبة على التفكير و أجمع بين هموم الفكر و الوطنية خاصة بعد الهزيمة. وخرجت من دائرة التخصص الدقيق إلى الكتابة للناس في" قضايا معاصرة" في جزأين، الأول في فكرنا المعاصر و الثاني في الفكر الغربي المعاصر، نفس التقابل بين ألانا و الآخر،و بدأت استعمال الآخر كأداة للإعلان عن الأنا كما فعل القدماء مع اليونان. فترجمت نصوصا في الفلسفة المسيحية لأوغسطين و أنسيلم و توما الأكويني في"نماذج من الفلسفة المسيحية"، و ترجمت"رسالة في اللاهوت و السياسة" لاسبينوزا و"تربية الجنس البشري" للسنج، "تعالي الأنا موجود" لجان بول سارتر.

ونظرا لكتاباتي عن الحرية ضاقت السلطات بي، ونصحتني الجامعة بمغادرة البلاد قليلا فذهبت أستاذا زائرا إلى جامعة تمبل بالولايات المتحدة(١٩٨١-١٩٨٥) وبدأت هناك أكتب" من العقيدة إلى الثورة ". و تعرفت على الفلسفة اليهودية و الإنجليزية و طبيعة المجتمع الأمريكي و هو يحاكم نفسه أثناء نكيسون. وقامت حرب أكتوبر(١٩٧٣) و أنا هناك.

و عدت (١٩٧٥) لإكمال مشروع "التراث و التجديد" فأنهيت المقدمة النظرية الأولى التي نشرت(١٩٨٠). و لما بدأ السادات في التحول عن السياسات الوطنية وزار إسرائيل و عقد الصلح معها استأنفت الكتابة للناس.وصدرت هذه الكتابات في مجموعة"الدين و الثورة في مصر(ثمانية أجزاء):الدين و الثقافة الوطنية، الدين

و التحرر الثقافي، الدين و النضال الوطني، الدين و التنمية القومية، الحركات الإسلامية المعاصرة، الأصولية الإسلامية، اليمين و اليسار في الفكر الديني، اليسار الإسلامي و الوحدة الوطنية.

ولما أخرجنا السادات من الجامعة في (١٩٨١) وعدنا إليها بحكم القضاء في(١٩٨٢) ذهبت إلى جامعة فاس بالمغرب (١٩٨٢-١٩٨٤) حيث نعمت بالطالب المغربي و بالثقافة العربية بالمغرب. و نظرا لخلافي مع السلطات هناك أيضا ذهبت إلى جامعة طوكيو(١٩٨٥) ثم جامعة الأمم المتحدة بطوكيو(١٩٨٥-١٩٨٧) مستشارا علميا إليها حيث وعيت لغة الخطاب الدولي السياسي.

وعدت إلى جامعة القاهرة في(١٩٨٧) و رأيت تفكك الوطن.و كان قد صدر لي في (١٩٨٨)" من العقيدة إلى الثورة"(خمسة مجلدات)في بيروت و القاهرة في وقت واحد. وبدأت أكتب في العلم و الوطن للناس، وهو ما صدر في جزأين بعد ذلك تحت عنوان" هموم الفكر والوطن" الأول عن التراث و العصر والحداثة، و الثاني عن الفكر العربي المعاصر.وفي(١٩٩٠) أخرجت حوارا مع صديقي محمد عابد الجابري نشر في "حوار المشرق و المغرب". ولما كنت أخشى قصر العمر و مازلت أعمل في الجبهة الأولى، إعادة بناء التراث القديم، رأيت نشر بيان الجبهة الثانية مع تطبيق أولي لها في"مقدمة في علم الاستغراب"في(١٩٩١).

ولما كنت أكتب كثيرا بالإنجليزية فقد نشرت دراساتي باللغة الإنجليزية في جزأين بعنوان"الإسلام في العصر الحديث"، الأول عن الدين و الإيديولوجية و التنمية، و الثاني عن "التراث و الثورة و الثقافة".

و مازلت أستأنف أجزاء التراث والتجديد.أعمل منذ عشر سنوات في" من النقل إلى الإبداع"لإعادة بناء علوم الحكمة. و لا أدري إذا كان العمر سيطول لإنهاء مشروع "التراث و التجديد" بجبهاته الثلاث وإعادة بناء العلوم القديمة،ما تبقى من العلوم النقلية العقلية كأصول الفقه و التصوف، و العلوم النقلية الخالصة كالقرآن و الحديث

والتفسير والسيرة والفقه، والعلوم العقلية والطبيعية الخالصة، والعلوم الإنسانية كاللغة والأدب والجغرافية والتاريخ.ومتى سأعود إلى الجبهة الثانية لأعيد كتابة بنية الوعي الأوروبي وتطوره، والى الجبهة الثالثة أنظر فيها للواقع تنظيرا مباشرا.

أهتم الآن بالمؤسسات العلمية، الجامعة وتربية جيل جديد من الباحثين أعيش من خلالهم، والجمعية الفلسفية المصرية، وربما تأسيس مركز للدراسات الفلسفية.

خلاصة الأمر أنني ابن عصري، أحمل همومي. أحاول إحياء الأمة. واستئناف حركة الإصلاح الديني بطريقة أكثر جذرية، وأشجع على الإبداع الذاتي، وأنقل التاريخ كله من مرحلة إلى مرحلة، ما بعد ابن خلدون إلى ابن خلدون جديد، من أجل نهضة إسلامية شاملة قادمة تعادل النهضة الأولى في القرن الرابع الهجري"(١).

إن ثلاثية حسن حنفي التي ترتكز على عدة معطيات ومبادئ ذات أبعاد خطيرة يمكن إجمالها كما يلي:قراءة التراث وإعادة بنائه طبقا لظروف العصر،تحرير الأنا والبحث عن الهوية في مقابل ظاهرة التغريب والهيمنة، وتنوير الآخر من خلال معرفة الأنا من جهة ثانية، وثالثا التنظير للواقع بطريقة مباشرة.

ومن أبرز القضايا التي يمكن ملاحظتها من خلال فكر حسن حنفي هي ذلك الانشطار في الهوية، وتمزق الأنا الذي يعيش بين التراث الموروث والوافد الغربي عليه، فالإنسان العربي ينظر بعين إلى الماضي وعينه الأخرى على الحاضر يسير إلى الأمام وهو ينظر إلى الخلف، بينما الغرب لا يعيش هذه الازدواجية، فتاريخه واحد مستمر لا توجد فيه قطائع أو تصدعات.

يعد الأستاذ حسن حنفي من المفكرين الذين يحاولون فك الحصار عن الأمة العربية، وفي تقديري الخاص أن ظهور الأفراد ضروري في التاريخ، فالبشرية تحتاج

---

(١) عبد الجبار الرفاعي، الفكر الإسلامي المعاصر، مصدر سابق، ص٢١٦-٢١٧-٢١٨-٢١٩.

دائما لمثل هؤلاء الرجال الذين يصنعون من الرماد سر الوجود والخلود. فلو لم يظهر حسن حنفي لما ظهر علم الاستغراب، وإذا كان الأستاذ حسن حنفي يريد التغيير وهو لاشك يحمل هما فكريا ويحاول أن يتقمص روح الأمة . فهل الواقع يقبل التغيير والتجديد، أم أن الواقع متكلس بفعل الرواسب التي ترسبت عليه عبر السنين، والذهنيات التي تذهينت بأفكار الاستسلام وقبول الواقع كما هو تحت إكراهات اليأس وعوامل الإحباط والانتكاسات المتتالية والهزات الارتدادية، التي أصابت الأمة العربية عبر مسارها التاريخي و الاجتماعي، والتي قتلت في الإنسان العربي روح الاجتهاد وخنقت فيه حيوية التفكير والإبداع.

التراث والتجديد، أو ثلاثية حسن حنفي، كمشروع فكري وحضاري شامل، أين يلتقي أو أين يتقاطع مع المشاريع العربية التي سبقته تاريخيا؟ وهل هو مجرد امتداد لها؟

يبدو أن الأستاذ حسن حنفي قد استفاد من المشاريع الفكرية التي سبقته، استفاد من نقاط قوتها وترك نقاط ضعفها، فلقد كان مشروع حسن حنفي يتميز بما يلي:

شمولية مشروع حسن حنفي الذي يملك رؤية ومشروع حقيقي يعمل على تحريك المجتمع من خلال تحريك الفكر على مختلف الجبهات(الماضي، الحاضر، المستقبل)

لكن يبقى التساؤل مشروعا حول قدرة هذا المشروع على استيعاب تحديات الواقع العربي، أم أن الواقع العربي هو أثقل من أن يستوعبه مشروع كهذا، ثم ما هي الضمانات التي يراهن عليها الأستاذ حسن حنفي لإنجاح هذا المشروع الضخم؟ وأين هي المؤسسات العلمية والثقافية والسياسية التي تتبنى فعليا هذا المشروع، أم نبقى نداعب هذا المشروع من بعيد على أمل أن يتحول إلى واقع بالتمني؟ وهل يمكن تغيير الواقع من داخل أسوار الجامعة فقط؟.

التراث والتجديد يرسم تصورات عن المستقبل للواقع العربي أكثر مما يتوجه إلى الماضي إلا أنه يجد لحظة اكتماله في ثلاثية الصيرورة التي تربط الماضي مع الحاضر بالمستقبل كون هذه الثلاثية يتغذى كل عنصر من عناصرها على الآخر ويتعين به في علاقة جدلية متقايضة التأثير والتأثر.

إلا أن الجبهة الثانية المتمثلة في علم الاستغراب، تحتل مساحة كبيرة نظرا لأهميتها، فمرحلة النقل عن الغرب كما يرى ذلك الأستاذ حسن حنفي قد استمرت فترة كبيرة، وهي لا تزال مستمرة، على أمل أن يلحق الشرق بحضارة الغرب، غير أن هذا الهدف لم يتحقق نظرا لسرعة الغرب في الإبداع والاختراع وبقاء الشرق في وضعية الإتباع والتقليد، وما زاد في تكريس هذه الوضعية هو سرعة الغرب في التجديد وقدرته على توسيع الهوة بينه وبين الشرق مما جعل هذا الأخير أشبه بسزيف أمام صخرته كما تروي الأسطورة اليونانية.

إن مشروع التراث والتجديد يحمل في صلبه فعل التحرر المزدوج التحرر من ألذات أولا ثم من الآخر بعد ذلك، من خلال الفهم العميق للتراث القديم و التراث الغربي و الواقع المباشر، من دون التركيز على جانب واحد وإهمال الجوانب الأخرى، عكس ما اتصفت به المشاريع الأخرى التي سبقته، وهذا ربما ما جعله أكثر تميزا،ولفتا للأنظار وزاده تماسكا،ومن جملة المواصفات التي يمكن للقارئ استخلاصها هو كون هذا المشروع يأخذ كل العناصر المشكلة لعصر النهضة. حيث يتناول بالدرس والتحليل جميع علوم الجبهة الأولى أي التراث،يقول الأستاذ حسن حنفي:"يختلف مشروع التراث والتجديد عن مشاريع عصر النهضة منذ القرن الماضي في أنه مشروع كلي يأخذ الجبهة ألأولى بكل علومها وليس علما واحدا"(١).

ولا يقتصر مشروع التراث والتجديد على تيار فكري واحد، بحيث لا يتناول التيار الإصلاحي و يهمل التيار الليبرالي، لأن في ذلك تقزيم وتحجيم لجهود المفكرين

---

(١) عبد الجبار الرفاعي، المرجع نفسه، ص٢٢١.

السابقين الذين اجتهدوا بدورهم في إيجاد الصيغ المناسبة التي يمكنها أن تحقق النهضة المرجوة للأمة.

كما يختلف مشروع التراث والتجديد عن تلك المشاريع العربية المعاصرة التي اعتمدت في دراساتها على المناهج الغربية لقراءة التراث من خلالها سواء كانت هذه المناهج ماركسية أو وضعية أو بنيوية أو غيرها، ورأى الأستاذ حسن حنفي أن هذا التجديد من الخارج قد ترتب عليه عيبين أساسيين هما:

١. إن استيراد منهج غربي وهو بطبيعة الحال وليد ظروف ثقافية وتاريخية مختلفة عنا، ومحاولة استعماله داخل فضاء حضاري مختلف، سيقود إلى النتيجة التالية وهي أنه كلما كان التراث موافقا للمنهج قبل، وكلما كان غير موافق رفض، وبالتالي سيكون المنهج هو الميزان والغرب هو المرجع.كما يعني كذلك بقاء جزء مهم من دون تفسير، وخارج دائرة الدراسة.

٢. إن اختلاف المناهج الغربية، سيؤدي إلى اختلاف الرؤى وتباين المواقف في تناول التراث، وبالتالي إلى تجزئته، دون دراسته في شموليته ووحدته. كما يلازم هذا التجديد ويقترن به شعور غريب يتمثل في الإحساس بالدونية والعجز من قبل الأنا أمام النظرة الاستعلائية للآخر.

إن مشروع حسن حنفي يحمل روح التجديد من الداخل، بالاعتماد على القدرات الذاتية دون إحساس بالنقص أمام الآخر، فهو ليس مجرد رد فعل، لأننا تجاوزنا مرحلة الانفعال ومحاولات التذويب والإدماج التي راهن عليها الغرب كثيرا، من أجل احتواء الأمة.

ثم إن النظرة الاستشراقية غير المنصفة والمغرضة أحيانا للتراث الإسلامي، والتي جعلت منه مجرد امتداد للحضارات السابقة كاليونان والفرس والهند، نفت عنه كل أصالة وإبداع أو إضافة وجعلته مجرد نقل وشرح للثقافات والحضارات القديمة، وأن

الرد على هذا الموقف السخيف بكل بساطة هو أنّ الغرب لم تكن تنقصه اللغة لينقل أو ليترجم حضارة اليونان ولماذا انتظر العرب والمسلمين الذين كان لهم دور كبير في حفظ التراث اليوناني؟ أضف إلى ذلك أن موقف أو مقولة مستشرق لن تغير من حقائق التاريخ شيئا حول التراث الإسلامي الضخم.

وتفاديا للنقائص التي لاحظها حسن حنفي في المشاريع والمناهج السابقة وتبديدا لكل سوء فهم في تحديد معالم وأبعاد ومنهج التراث والتجديد يقول:"يعتمد منهج التراث والتجديد على إعادة بناء القديم بمناهج إصلاحية، وعرض ما قاله القدماء على ظروف هذا العصر واحتياجاته الرئيسية اعتمادا على العقل البديهي والمصالح العامة، وكل ما يختزنه الوعي من ثقافات قديمة ومعاصرة تحولت إلى رؤية منهجية إبداعية مستقلة تجعل الواقع يتحدث عن نفسه لا فرق بين موضوع ومنهج، خارج وداخل، موروث ووافد.فالبلبل يغرد دون أن يدرس قواعد الموسيقى"(١).

لقد بدأت إرهاصات ومعالم هذا المشروع الضخم الأولى تتبلور منذ سنة ١٩٥٦ - ١٩٦٦، لما كان حسن حنفي يدرس في باريس، وأنّ المتتبع لمشروع حسن حنفي يدرك أنه يتكون من ثلاث جبهات هي كما يلي:

١-الجبهة الأولى: موقف حسن حنفي من التراث و إعادة بنائه طبقا لظروف العصر.

تحتوي الجبهة الأولى من مشروعه على سبعة أجزاء يحددها حسن حنفي كما يلي:"قمت بالجزء الأول منه عن علم أصول الفقه بالفرنسية"مناهج التأويل في علم أصول الفقه" و أخرجت الجزء الثاني" من العقيدة إلى الثورة" لإعادة بناء علم أصول الدين. وأعدّ الآن الجزء الثالث"من النقل إلى الإبداع" لإعادة بناء علوم الحكمة.ثم أبدأ في الجزء الرابع"من الفناء إلى البقاء"لإعادة بناء علوم التصوف.ثم أبدأ في الجزء

---

(١) عبد الجبار الرفاعي، المرجع نفسه، ص٢٢٣.

الخامس"من النقل إلى العقل"لإعادة بناء العلوم النقلية:القرآن. و الحديث. والتفسير. و السيرة، و الفقه، و الجزء السادس" الوحي و العقل و الطبيعة" لإعادة بناء العلوم الرياضية و الطبيعية:الحساب، و الجبر، و الهندسة، و الفلك، و الموسيقى. و الطبيعة،والكيمياء، والطب، و الصيدلة، و النبات، و الحيوان، ثم الجزء السابع"الإنسان والتاريخ" لإعادة بناء العلوم الإنسانية:اللغة والأدب، و الجغرافية، و التاريخ.

٢- الجبهة الثانية:في الجبهة الثانية يحاول الأستاذ حسن حنفي أن يحدد موقفه من التراث الغربي، من أجل وعيه، ومعرفة أسسه و مكوناته، وتطوره التاريخي، ونقده، ووضعه في إطاره كمرحلة من مراحل التاريخ، بطريقة موضوعية علمية، للرد على المركزية الأوروبية. لأن التراث الغربي ليس هو النموذج الوحيد الذي يجب أن تمّر به جميع الأمم، أو اعتبار الغرب كما يرى حسن حنفي:" النمط الأوحد لكل تقدم حضاري، ولا نمط سواه، وعلى كل الشعوب تقليده، والسير على منواله. وقد أدى ذلك إلى إلغاء خصوصيات الشعوب و تجاربها المستقلة، واحتكار الغرب وحده حق إبداع التجارب الجديدة و الأنماط الأخرى للتقدم"(١).

وهذا بطبيعة الحال من أجل تخليص الأنا من التقليد الأعمى للتراث الغربي وفك القيود عنها حتى تتمكن من الخلاص أولا، و الإبداع ثانيا والاستقلال ثالثا، والتأثير في مجرى التاريخ رابعا، و تسعى من وراء ذلك إلى الانخراط في المجتمع الإنساني و الاقتراب قدر المستطاع من المجتمعات المتقدمة. وفي هذا الصدد يقول الأستاذ حسن حنفي: "من أجل تحرر الأنا من الوقوع في تقليد الغرب بعد أن تحررت من تقليد القدماء. و قد قمت بالجزء الأول في الرسالتين الفرنسيتين "تفسير الظاهريات"و "ظاهريات التفسير"، ثم "مقدمة في علم الاستغراب"، ثم دراساتي عن الفلسفة الغربية إما ترجمة أو تأليفا.و ما زال في ذهني ثلاثية عن الوعي الأوربي، البنية

---

(١) عبد الجبار الرفاعي، المرجع نفسه، ص٢٢٠.

والتطور، أصف فيه مصادر الوعي الأوربي ثم تكوين الوعي الأوربي ثم بنية الوعي الأوربي كي أحوّل الغرب من كونه مصدرا للعلم كي يصبح موضوعا للعلم"(١).

وعلى الرغم من قصر عمر هذه الجبهة في وعينا القومي كما يرى ذلك الأستاذ حسن حنفي، فإنها تأخذ حجما كبيرا أكثر من حجمها الطبيعي.أضف إلى ذلك غياب الدراسات العلمية المتخصصة للتراث الغربي.

٣. الجبهة الثالثة: تمثل الجبهة الثالثة من مشروع حسن حنفي الموقف من الواقع أو نظرية التفسير، وفيها يحاول الأستاذ حسن حنفي أن ينظّر للواقع تنظيرا مباشرا عبر منهج ظاهراتي. يتعامل مع الواقع كما هو دون التقيد بنصوص سابقة. أو بالاعتماد على الغرب. ويتم ذلك من خلال رصد مشاكل الواقع العربي وتصور حلولها الممكنة لمواجهتها، و التقليل من حدتها، والإبداع لكسر حالة الجمود التي أضحت صفة مميزة للواقع العربي حتى ليمكن القول أن الأمة أصيبت بالصرع أو العقم.يقول الأستاذ حسن حنفي:"أحاول فيه- أي الموقف من الواقع-أن أرصد الواقع كفقيه، مشاكله وحلولها، وأحاول أن أحلل ظواهر الاستعمار و القهر و الاستبداد و التخلف و التجزئة و الفقر و التبعية و اللامبالاة، لإنشاء فكر إسلامي جديد يعبر عن المرحلة الراهنة التي تمر بها الأمة، فليس المهم قراءة نص قديم بل إبداع نص جديد.الجبهة الأولى تمثل الماضي، والثانية تمثل المستقبل، و الثالثة تمثل الحاضر.

"التراث و التجديد" إذن هو وضع الفكر الإسلامي في الزمان و في مسار التاريخ حتى يتحرك من جديد، فنحن لسنا مستشرقين بل أهل الديار. الإسلام جزء منا ونحن جزء منه.نحن مسؤولون عنه، و لسنا فقط متفرجين عليه، نصدر أحكاما عليه بالخطأ أو الصواب"(٢).

---

(١) عبد الجبار الرفاعي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) عبد الجبار الرفاعي، المرجع نفسه الصفحة نفسها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الجبهات ليست منفصلة عن بعضها البعض، لأن الأنا هو المحور الذي تدور عليه هذه الجبهات، وهو مركز الثقل في هذا المشروع، وإنما جاء هذا التقسيم للضرورة المنهجية، وما يفرضه البحث والدراسة العلمية من مقتضيات.

في مشروع التراث والتجديد يعلن الأستاذ حسن حنفي، عن مجموعة من المبادئ والقيم التي يستند إليها علم الاستغراب بوصفها مرتكزات نظرية مرجعية. ويتنبأ بنتائج ستترتب عن هذا العلم الجديد بعد ترسيمه، نذكر البعض منها فيما يلي:"

١- السيطرة على الوعي الأوروبي أي احتواؤه بداية ونهاية.

٢- دراسة الوعي الأوروبي على أنه تاريخ وليس خارج التاريخ.

٣- رد الغرب إلى حدوده الطبيعية،وإنهاء الغزو الثقافي الذي لا حدود له

٤- القضاء على أسطورة الثقافة العالمية واكتشاف خصوصيات الشعوب

٥- إفساح المجال للإبداع أمام الشعوب غير الأوروبية وتحريرها

٦- القضاء على عقدة النقص لدى الشعوب غير الأوروبية.

٧- إعادة كتابة التاريخ بما يحقق أكبر قدر ممكن من المساواة في حق الشعوب.

٨- بداية فلسفة جديدة للتاريخ.

٩- انتهاء"الاستشراق" وتحول حضارات الشرق من موضوع إلى ذات

١٠- إنشاء علم الاستغراب كعلم دقيق مهمته تحويل الحضارة الأوروبية من دراسة موضوع إلى موضوع دراسة.

١١- تكوين الباحثين الوطنيين الذين يدرسون حضارتهم الخاصة من منظور وطني

١٢- بداية جيل جديد من المفكرين بعد جيل الرواد الأوائل في عصر النهضة

١٣- يهدف علم الاستغراب إلى تحقيق التحرر الانطولوجي حيث تبدأ الأنا في وضع ذاتها كأنا، من خلال الكوجيتو:"أنا لا أغترب""إذن، أنا موجود"أو"أنا لست آخر""إذن أنا موجود".

١٤- وقد ينتج عن علم الاستغراب أخيرا أن تشهد الإنسانية عصرا جديدا يختفي منه داء العنصرية الدفين الذي نشأ إبان تكون الوعي الأوروبي حتى أصبح جزءا من بنيته"(١).

يعد علم الاستغراب من أهم الحركات الفكرية التي عرفها الخطاب العربي المعاصر، في ظل تقهقر الأمة العربية، وتأتي أهمية هذه المحاولة التي يقودها الأستاذ حسن حنفي من كونها تحتل موقعا وسطا بين ثنائية الحركات الفكرية التقليدية التراثية التي تتخذ موقف الرفض المطلق من الغرب للتصدي للعدوان على الهوية الثقافية المستهدفة، و المحافظة على ألذات، وبين أنصار التفتح على الغرب والاستفادة من قيمه العلمية و تجاربه المختلفة، و مسايرة الركب الحضاري، غير أن الأستاذ حسن حنفي يرى أن كلا الموقفين خاطئين.

و قد حان الوقت لتصحيح هذين الخطأين حيث يقول:"وقد آن ألأوان لتصحيح هذين الخطأين، ونقل الموضوع من مستوى الانفعال إلى مستوى الفعل، ومن ردود الأفعال إلى التحليل العلمي الرصين" (٢).

---

(١) حسن حنفي، ماذا يعني علم الاستغراب؟، ؟، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى، سنة، ٢٠٠٠، ص ص:٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦.

(٢) حسن حنفي، ماذا يعني علم الاستغراب؟، مصدر سابق، ص ص:٣٥، ٣٤.

ولا يكون ذلك في اعتقادي إلا بالوعي، و الإبداع بدل التبعية المطلقة للغرب، وإن كان مشروع حسن حنفي -رغم أهميته- لم يجد بعد الأقلام التي تتبناه.

و قد أكد الأستاذ حسن حنفي، على أن الغاية من علم الاستغراب هي تجاوز وليس الوقوف عند حدود نقد الاستشراق. لأن الاكتفاء بالنقد هو مجرد رد فعل، أي موقف دفاعي صرف، يعيب على الغرب دراساته غير الموضوعية عن الشرق و التي تحركها أسباب و دوافع كثيرة، والنتيجة أن هذا الموقف النقدي لا يقدم شيئا ايجابيا ولا يقدم البديل. فإذا كان الاستشراق هو دراسة الغرب للشرق فإن الاستغراب هو دراسة الشرق للغرب.

ويقول أيضا:" مهمة علم الاستغراب هي القضاء على ثنائية المركز والأطراف على مستوى الثقافة والحضارة. فمهما حاول رجال السياسة والاقتصاد القضاء على هذه الثنائية في ميدان السياسة والاقتصاد دون القضاء عليها مسبقاً في الثقافة فإن تبعية الأطراف للمركز في السياسة والاقتصاد قائمة. وطالما أن الثقافة الغربية هي المركز والثقافات اللا غربية في الأطراف ستظل هذه العلاقة أحادية الطرف، من المركز إلى الأطراف، علاقة المعلم بالتلميذ، والسيد بالعبد فالغرب هو المعلم الأبدي، و اللاغرب هو التلميذ الأبدي و العلاقة بينهما أحادية الطرف، أخذ مستمر من الثاني و عطاء مستمر من الأول، استهلاك دائم من الثاني وإبداع دائم من الأول.ومهما تعلم التلميذ فإنه يكبر تلميذا، ومهما شاخ الأستاذ فإنه يظل معلما"(١).

وقد علق الدكتور عبد الجبار الرفاعي على مهمة و أهداف علم الاستغراب قائلا:"وفي مقارنة الاستغراب بالاستشراق يلخص حسن حنفي مهمة الاستغراب، بأنه إذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا من منظور الآخر، فان الاستغراب هو محاولة معرفية ترمي إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا و الآخر، والجدل بين مركب

---

(١) حسن حنفي، المصدر نفسه، ص ٥٩.

النقص عند الأنا و مركب العظمة عند الآخر". فمنذ الاستشراق القديم الذي نشأ واكتمل في عنفوان المد الاستعماري الأوروبي لجمع اكبر قدر ممكن من المعلومات عند الشعوب المستعمرة أخذ الغرب دور الأنا فأصبح ذاتا، و اعتبر اللاغرب هو الآخر فأصبح موضوعا.فالاستشراق القديم يعني رؤية ألانا الأوروبي للآخر غير الأوروبي،علاقة الذات بالموضوع المدروس (١).

والآن يحق لنا أن نتساءل عن الأصول العلمية و الفلسفية والجذور التاريخية التي مهدت لظهور علم الاستغراب، فما هي إذن الأسباب و دواعي النشأة التي تقف وراء الدعوة إلى تأسيس علم الاستغراب؟

يجيب حسن حنفي على هذا السؤال الذي طرحه عليه عبد الجبار الرفاعي بقوله:"منذ وعيت نفسي مفكرا في موقف حضاري لجيلي، الإخوان المسلمون والحرب العالمية الثانية، وضياع فلسطين في(١٩٤٨) أدركت الجبهات الثلاث: موقفنا من التراث القديم"الإخوان"، موقفنا من التراث الغربي(الحرب)، موقفنا من الواقع (فلسطين).والانا العربي الإسلامي المحاصر بين هذه الأوضاع الثلاثة، أريد تحريرها من تقليد القدماء و تقليد المحدثين أي الغرب، و الهروب من الواقع أو التعامل معه تعاملا إنشائيا خطابيا بلاغيا"(٢).

وباختصار شديد يعتبر كتاب حسن حنفي مقدمة في علم الاستغراب، والذي أعاد تلخيصه في كتابه ماذا يعني علم الاستغراب؟، .هذا لكي تسهل قراءته تعميما للفائدة، البيان النظري للجبهة الثانية من مشروعه الضخم الذي يتعلق بموقفه من التراث الغربي.

---

(١) حسن حنفي، المصدر نفسه، ص:١٦.

(٢) عبد الجبار الرفاعي، الفكر الإسلامي المعاصر، مرجع سابق ص:٢٥٠.

إن أهمية علم الاستغراب متأتية من مجموعة من العناصر، لعل أبرزها نجده عند الإمام باقر الصدر في التمايز الحضاري بين الشرق و الغرب، و في هذا الصدد يقول حسن حنفي: "إن أهمية محمد باقر الصدر هو هذا التمايز الشديد لديه بين الأنا و الآخر كما وضح في" فلسفتنا"، "اقتصادنا" و هو تمايز جمعي و ليس شخصيا بدليل ضمير المتكلم الجمع، بدلا من اعتبار الغرب مصدرا وحيدا للعلم و غيره من الشعوب ناقلة مستهلكة و معلقة و مهمشة و ملخصة و عارضة له. هذا التمايز الحضاري هو الذي تحوّل بعد ذلك إلى علم الاستغراب". (١٥)

إن الإنسان والمشروع شيء واحد لا فرق بينهما. فالمشروع لا حياة له من دون الإنسان والإنسان لا معنى بغير مشروع، وإن أسمى تجليات المشروع في تصور حسن حنفي هو أن التاريخ لا يمكن أن يستمر على ما هو عليه، بل لابد له أن يتغير، ولابد أن يكون هناك متسع للأمل والمستقبل الواعد، على أساس أن الأجيال القادمة ستحصد ثمار هذا المشروع.

إن أهمية هذا المشروع، تتجلى في واقعيته، وتفاعله مع متطلبات الإنسان الحضارية، وملامسته لجوانب الواقع، من خلال لمس كبد الحقيقة. وبالتالي فهو ليس مشروعا يحلق فوق الواقع.ومهما كانت المفارقات بين البناء النظري لمشروع التراث والتجديد والواقع المعاش هو محاولة ردم الهوة الفاصلة بين النظر والواقع، ثم إن هذا المشروع يهدف إلى تصحيح تلك المغالطات التي تسللت إلى أذهان المستشرقين الذين لعبت أفكارهم دورا مهما في تشويه حقيقة التراث الإسلامي، وحقنت الشخصية الوطنية بأفكارها المسمومة التي تشل الإبداع وتكرس الإتباع.

ولكن هناك تساؤلات ترتبط بهذا المشروع، يمكنني طرح البعض منها على سبيل المثال، فكيف يمكن لمشروع جسور أن ينهض والخلافات تزداد اتساعا بين الإخوة الفرقاء، والأعداء يتربصون. والاعتداءات على الأمة متواصلة ؟ كيف يمكن إيقاف الغرب الذي لا يزال يعزل أقطارا من الوطن العربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا،

ويقف حاجزا كبيرا كالصنم في طريق تقدم باقي ألأقطار العربية ألأخرى؟ كيف يمكن تجسيد هذا المشروع وعجلة التاريخ تدور داخل وطن مملوء بالهموم ومسيج بالمشاكل، وكأن التاريخ يدور في حلقة مفرغة وكأن هذا الزمان ليس لنا بل لغيرنا، ألا يمكن لوضع كهذا أن يلقي بظلاله المعتمة على المشروع، ويؤخر تجسيده ميدانيا، وحتى وان قدر لهذا المشروع أن يولد في ظل هذه الظروف، ألا يمكن أن يولد في وضع غير طبيعي أو ربما يولد مشوها؟.

إن الأستاذ حسن حنفي يريد أن يقول للمثقفين من خلال مشروع التراث والتجديد إني ألقي عليكم مسؤولية المستقبل، لقد وضعت الأسس النظرية لهذا المشروع وأقمت سورا حول البيت لحمايته، على أن تكمل الأجيال القادمة المسيرة التي أعطيت إشارة انطلاقها.هذه الأجيال التي سيكون لها متسع من الوقت إخلاصا لطموحات هذه الأمة المتعطشة إلى قيم التقدم والحرية. كما يؤكد الأستاذ حسن حنفي على حتمية وضرورة استقلال الفكر العربي الذي يعيش على ضلال الفكر الغربي، ويؤمن بقدرتنا على إمكانية تجاوز عقدة النقص أمام آلا خر، ويتساءل على شاكلة شكيب أرسلان لماذا يعجز الفكر العربي عند كل منعطف تاريخي حاسم عن تحويل عبقريته إلى واقع ملموس ومجسد في الميدان حتى نستطيع أن نتنفس هواء نقيا بدلا من هذا الهواء الملوث بشتى الأفكار الميتة الموبوءة والقاتلة؟.

فإذا كنا قد تحررنا من قبضة الاستعمار المباشر، فإننا نعيش من جديد استعمارا أخطر بكثير وأبشع من ألأول، ألا وهو الاستعمار عن بعد أو استعمار الأفكار، فالسؤال الذي يظل قائما هو كيف يمكن تحويل هذه النفس المنهزمة إلى نفس منتصرة قوية واثقة في انتصارها ؟.

هل الواقع العربي بطبقاته هو أعمق وأثقل بكثير من أن يحركه مشروع واحد؟ ،ولذلك لابد أن تتضافر مشاريع أخرى إلى جانب مشروع حسن حنفي، تؤمن بنفس الأفكار وتسير في المنهج وتصبو إلى نفس الغاية والهدف، لتتقاسم المهام التاريخية،

وتحيل الممكن إلى واقع والتخلف إلى تقدم واليأس إلى قوة والتراجع إلى مبادرة، والهزيمة إلى انتصار، من أجل الاستعداد لدورة جديدة من دورات التاريخ العالمي، كل ذلك يتم في إطار المحافظة على التراث والموضوعية في التعامل مع الواقع، لأن الإنسان مكره على أن يعيش عصره، فالواقع العربي المأزوم لا يقبله العقل، ولا المنطق ولا يرضاه الله لعباده.

وفي الأخير نقول إن مشروع "التراث والتجديد" يبقى جهداً بشرياً، واجتهادا من اجتهادات البشر، يقوم على وجهة نظر بنيت على دراسة ومعايشة واستخلاصات لمسيرة طويلة وشاقة وتجربة تحمل رؤية تجديدية لرحلة تاريخية مقبلة طال انتظارها، فالأمم تتطور بسواعد وعقول أبنائها وتنتزع الاعتراف عندما تثبت ذاتها بذاتها